شرائط التوبة (٣)

بقلم: سماحة المرجع الديني الشيخ بشير حسين النجفي ـ دام ظله ـ

الشرط الثالث:

أن لا ينسى الإنسان ذنوبه ويتذكّرها دائماً ليكون على خوفٍ ووجلٍ من مؤاخذة الله له إن لم تقبل توبته لقصور أو تقصير في أداء معناها فيظل الندم يعصر قلبه فيحثّه على الابتعاد عن مخالب الشيطان وحبائل نفسه الأمّارة بالسوء، وقد روى الكليني (رضوان الله عليه) عن بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة.

قلت: يدخله الله بالذنب الجنة؟

قال: نعم، إنه يذنب فلا يزال خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة[١].

ويستفاد من الروايات أنَّ الله سبحانه لا يترك عبده المؤمن ليغفل عن ذنوبه ومعاصيه ليستمرّ في الندم على ما صدر منه والرجاء للمغفرة منه، ففي مقام التوبة ينبغي للعبد أن يذكر ذنوبه ويقرّ بها ويعترف بتقصيره تجاه سيده، وقد روي أن الاعتراف بالذنوب مع الندم مقارناً لطلب العفو والتجاوز يجلب المغفرة من الله ويستجلب رحمته تعالى، فقد روي عن الإمام الباقر (سلام الله عليه) قال: والله لا ينجو من الذنب إلا من أقرَّ به[٢].

وكذلك روي عنه عليه السلام: لا والله ما أراد الله من الناس إلّا خصلتين: أن يقروا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إنَّ الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يَستَخفّ بالجرم اليسير[٤].

وروي عن الإمام الصادق (سلام الله عليه): والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار وما خرج من ذنب إلّا بإقرار[٥].

والذي توغّل في المعاصي واستولت ظلمة ذنوبه على نور عقله واسودَّ باطنه وأبعد في اقتحامه للموبقات يغفل عما صدر منه من الموبقات فلا يعرف أولئك الذين أكل أموالهم أو هتك أعراضهم أو أباح دماءهم أو تورّط في قتلهم وينسى المؤمنين الذين اغتابهم أو ارتكب الفضائح تجاههم أو المعاصي التي توغّل فيها بينه وبين ربه، فربما تجده موفور النعمة واسع الحال يرعى في نعم الله سبحانه ليلاً ونهاراً غافلاً عن أنه استدراج، وإلى مثل هؤلاء يشير قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وإلى مثل هؤلاء يشير قوله سبحانه أيضاً: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وهذا لا يعني أنه قد أغلق في وجهه باب التوبة، بل يعني ذلك أنه لسوء اختياره وقبح سريرته قد صرف وجهه عن رحمة الله تعالى، وأسلس نفسه لقيادة الشيطان، واستولت عليه شقوته التي اختارها بمحض إرادته، إلّا أن الله سبحانه لا يقطع رحمته عنه فيوقفه بين حين وآخر على ما يمكن أن يهتدي به ليكون له تعالى الحجّة البالغة عليه ولا يكون لعبده حجّة عليه.

الشرط الرابع:

أن يبتعد عن تلك الظروف التي كان يعيشها أيام المعصية وكانت تشجّعه وتسهّل له سبل المعاصي وينفصل عن أولئك الذين كان معهم أيام المعاصي لئلا يذكّروه بتلك اللذّة الخيالية التي كان يستأنس بها حين ارتكاب المعاصي، ولعلّ إلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]، نعم إن كانت تلك المجموعة تابت ورجعت إلى الله تعالى فالبقاء حينئذٍ معهم ربما يساعده على الاستمرار في التوبة والاستغفار فذلك أمر آخر.

الشرط الخامس:

أن يتـدارك مـا فاتـه من العبادات أيام الصبوة والمعاصي من صـلاة وصوم وغيرهما من العبادات، بل يسعى في تكرار ما قد أدّاه من تلك العبـادات زيـادة فـي الاحتياط لدينه، إذ لا يعلم قبول تلك الأعمال، بل العبد العادي غير المعصوم يحتمل أن لا تكون أعماله صحيحة فيعيدها، بل قد فعل هذا المعنى غير واحد من علمائنا الأجلاء، فروي أن العلّامة الحلي (أعلى الله درجاته في عليين) أعاد صلواته كلها ثلاث مرات ثم أوصى ولده فخر المحققين (رضوان الله عليه) بإعادة صلواته وصومه زيادةً في الاحتياط، وهكذا كانت وصية سيدنا الأعظم السيد أبو القاسم الخوئي إلى نجله العلّامة السيد محمد تقي الخوئي (رضوان الله تعالى عليهما)، بل حتى ولو علم أن صلاته مثلاً كانت صحيحة مع ذلك يكفي في إعادتها جلباً للاحتياط أنها لم تكن كما ينبغي مع التوجه والالتفات وحضور القلب بالنحو المطلوب من العبد ومعلوم أنه قد ورد أنه لا يُقبَل من الصلاة إلّا ما كان مع الإخلاص والتوجّه إلى الله سبحانه.

ثـم بعضـ المعاصـي مما له ارتباط بالعباد قد لا تكون متعلقة بالأموال بل تكون متعلقة بالأنفس والأعراض كأن يكون قد اغتاب أحداً أو طعنه بتهمة أو قَلَّلَ من قدره في مورد من الموارد فلا عذر له ولا يستحق الغفران من الله سبحانه ما لم يستوهب ذلك ممن أساء إليه إذا كان ذلـك ممكنـاً ولـو اقتضى ذلك الخضوع والاعتراف بالمعصية أمام ذلك الذي ظُلِـمَ بهذه الأعمال، فإن الخضوع لحظة أمام بعض عباد الله أهون وأسهل من خزي يوم القيامة، وإن عدَّه بعض الجهال عاراً ولكن قال سيد الشهداء (سلام الله عليه):

الموت أولى من ركوب العار

والعار أولى من دخول النار

ولا عـار ولا خـزي فـوق خزي دخـول النار، قال الله سبحانه حكاية عـن دعاء المؤمنين المخلصيـن: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

الشرط السادس

أن يطلب من الله العفو والغفران مع الاعتراف بالتقصير ويستمر في ذلك.

واعلم يا أخي إن الاستغفار عبادة ولا يخلو العبد العادي من وجوبه لعدم خلوِّه من المعاصي والمزالق، وهو وإن وجب عليه رجاء الله سبحانه إلّا أنّه ينبغي أن نعلم إنَّ ما فات العبد من عمره أثناء المعصية لا يمكنه تداركه، فإن ما يفعله من الاستغفار حال التوبة إنما هو في وقت من العمر غير الذي ارتكب فيه المعاصي، فلو نظر العبد وتأمل في خسارة ذلك الوقت الذي قضاه في البعد والابتعاد من ساحة رحمته تعالى لكفى في أن يبكي طول حياته ولو بكى لما أمكن تدارك ذلك أيضاً.

نعم قد ورد أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

أولاً: إنه ورد فيمن قُبِلت توبتُه واستجيب استغفارُه وأنّى لك العلم بذلك؟!

وثانياً: إنّ أقصى ما يتحقق للعبد بالتوبة هو محو تلك المعصية وإحباط تلك الجريمة من صحيفة أعماله، لكنه قد خسر الوقت الذي صرفه في المعصية فلا تُعَوَّض تلك الخسارة.

ثـم لا يتـم الاستغفار إلّا بعد إحراز سـت مراحل، وقد بينها سيد الأوصياء (سلام الله عليه) حيث قال لقائل بحضرته أستغفر الله (ثكلتك أُمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع على ستة معانٍ: **أولها:** الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تَلقى الله أملس ليس عليك تبعةٌ.

الرابع: أن تعمِد إلى كل فريضة عليك ضَيَّعتها فتؤديها.

والخامس: أن تَعمد إلى اللّحم الذي نبت على السُّحت فتُذيبه بالأحزان حتى تُلصِق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول أستغفر الله[٦].

واعلـم يـا أخـي أنَّـا قَدَّمنا بعض الكلام حول المعاني الثلاثة الأولـى: الندم على ما مضى والعزم على ترك العـود وأداء الحقوق إلى أهلها، وينبغي أن نشير إلى بعض ما يرمي إليه كلامه (سلام الله عليه) في الثلاثة الأخيرة.

قولـه عليه السلام: (أن تعمـد إلـى كل فريضة عليك ضيَّعتها فتؤديها) الظاهر أنه لا يقصد بذلـك مجرد عدم الإتيان بالفريضة، فإنَّ التضييع كما

يتحقق بعدم الإتيان بها أو عدم صحتها من حيث الأجزاء والشرائط، كذلك يصدق إذا خلت الفريضة من روحها وهي الإخلاص والتوجه، بأن لا تكون الصلاة تحقق معنى المعراج ولم تحقق القربة المطلوبة للعبد من وراء الفريضة ولا تعمل تلك الفريضة عملها لو كانت بالنحو المطلوب بأن لا تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر والبغي فهي ضائعة.

وأما قوله عليه السلام: (أن تعمد إلى اللحم الذي نَبَتَ على السُحت) فيمكن أن يكون إشارة إلى معنيين:

أحدهما: وهو الظاهر في النظر البدوي وهو أن يكون الإنسان قد أكلَ حراماً فنبت لحمه من ذلك الأكل المحرّم.

والمعنى الثاني: إنّ نبات اللحم كما يفتقر إلى الغذاء كالمأكول والمشروب كذلك يفتقر إلى الانتعاش الروحي النفسي، فالطعام مهما كان صالحاً لتغذية البدن فما لم يقترن معه النشاط الروحي لم ينفع ذلك الطعام وقد ثبت بالتجربة وببيان الأطباء أن أكل الطعام في حالة العذاب الروحي والحزن أو الخوف لا ينفع للبدن، وذُكِرَت في هذا المعنى قصصٌ نجدها في مظانِّها، فإذا كان الإنسان مشتغلاً بالمعاصي ومندفعاً إليها كان انتعاش روحه نابعاً من معصية الله تعالى وذلك يكون مساعداً بل مؤثِّراً قوياً في إفادة ذلك الطعام ـ الذي هو في نفسه حلال ـ نباتُ اللحم، فالسحت إذن هو عبارة عن ذلك النشاط الروحي الذي كان هو الأساس في تأثير الغذاء في إنبات اللحم، وبهذا المعنى الثاني يصح ضرورة إحراز المعاني كلّها في حق كل عاصٍ وإن لم يأكل ما حَرَّمَ اللهُ.

وأما قوله عليه السلام: (أن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقتَه حلاوة المعصية) فيمكن أن يُفسَّر ألم الطاعة بأمور:

أولاً: بما يبدو في النظر السطحي إن الواجبات تكاليف شرعية فيها كلفة فيلازمها ألمُ التعب وألمُ مَنْع النفس وحَبْسها عن المباحات التي يجب تركها أثناء تلك الواجبات مثل ما يحرم على المصلّي أثناء الصلاة وما يحرم على الصائم أثناء الصوم وما يمنع عن الحاجّ في أعمال الحج والعمرة، فيكون الألم من جهتين التعب والمشقة وألم الابتعاد من تلك المباحات التي تتوق إليها النفس البشرية بمقتضى الطبع الناسوتي.

وثانياً: أن يراد بالألم ألم الخزي والندامة التي يحسّها كل ذي إحساس سليم حين وقوفه أمام سيده الذي قد تمرَّد عليه وخرج عن طاعته وتجاسر على جنابه، ومعلوم أن هذا الألم روحي وهو أقوى بكثير من الألم الجسدي الذي أشرنا إليه في المعنى الأول، ولذلك نُقِل عن بعض الحكماء أنه قال إنَّ ما يحس به الإنسان من مجالسة شخص ما ثقيل أشد مما يحسّه من رفع الجسم الثقيل، لأنَّ الأول ثقيل على الروح والثاني ثقيل على الجسد، ولعلّ جلَّ العقلاء يتحملون الآلام الجسدية والأتعاب البدنية برحابة صدر تخلّصاً من الألم الروحي والنفسي.

وثالثاً: إنَّ الصلاة وغيرها من العبادات بالقياس إلى المطيعين والمخلصين تسبِّب لذةً روحيةً عظيمةً وتسبِّب لهم راحةً ليس وراءها راحة، ولذلك روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله ربما يكون مع أصحابه يتحدث فيحلّ وقت الصلاة فيقول لمؤذِّنه بلال: أرحنا يا بلال. فكانت راحته صلى الله عليه وآله في الصلاة لأنّ قرة عينه فيها، وأما بالقياس إلى العصاة والناس العاديين أمثالنا فالصلاة وغيرها من العبادات لشدة ما توغَّلنا في المعاصي وابتعدنا عن جناب قدسه تعالى نتيجة ما احتطبنا على ظهورنا من الخطايا فانطبعت نفوسنا على خلاف ما ينبغي أن تكون عليه أرواحنا وحياتنا، فاعوجَّ ما كان مستقيماً، وتوغلت الأوساخ فيما كان نظيفاً، وتشتَّت ما كان ملموماً واظلمّ ما كان مستنيراً، فالصلاة تكون قلعاً لهذه القاذورات وتعديلاً لذلك الاعوجاج وتبييضاً لذلك السواد فهي بمنزلة الدواء المُزيل للمرض والمواد الكيماوية التي تعمل عمل التيزاب في قلع تلك المفاسد التي أوغلت نفوسنا فيها فنحسُّ بالألم من فعل تلك العبادة.

ثم الاستغفار له أوقات أهمها اثنان:

أحدهما: أن يستغفر الإنسان عقيب كل معصية أو حينما يلتفت إلى نفسه وصنيعه، فقد ورد ما معناه إنَّ من كان في صحيفة أعماله الاستغفار مع كل معصية غفر الله له.

الثاني: السحر حيث مدح الله سبحانه المستغفرين بالأسحار، ولعلّ المقصود بذلك صلاة الوتر عقيب صلاة التهجد.

وينبغي أن نعلم أن الاستغفار نوع دعاء فعلى الإنسان المستغفر أن يتحرّى الأوقات المفضّلة للدعاء كما لا ينبغي أن يغفل أحد عن أن معنى الاستغفار لا يتحقّق إلّا بأن يلتفت المستغفر إلى نفسه كمذنب مفتقر إلى عطف ربه ويلتفت إلى الذنب أو الذنوب التي احتطبها على ظهره ولو بنحو الإجمال ويكون متوجهاً بإخلاص إلى مولاه الذي أذنب تجاهه وتجاسر على جنابه وتمرَّد عليه مع الاعتقاد الجازم بعطفه ورحمته ووعده بالغفران وأوامره المُلِحَّة بطلب المغفرة، وبدون هذه المعاني التي أشرنا إليها لا يتحقق معنى الاستغفار.

(١) أصول الكافي ج٢ باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها ص ٤٢٦ ح٣.

(٢) المصدر السابق ح١.

(٣) المصدر السابق ح٢.

(٤) المصدر السابق ص٤٢٧ ح٦.

(٥) المصدر السابق ص٤٢٦ ـ ٤٢٧ ح٤.

(٦) نهج البلاغة / الحكم والمواعظ / الفقرة ٤١٧.